كلمة التحرير

القيم العالمية

فتحي حسن ملكاوي

أولاً: الأبعاد الإنسانية في القيم

يُعدّ مفهوم "القيم العالمية" واحداً من موضوعات الحرب الفكرية التي ترافق أشكال الحرب الأخرى، بهدف كسب العقول والقلوب، وتدور رحاها في ميادين التعليم والإعلام والمؤتمرات الإقليمية والدولية، وتحاول فيها القوى الكبرى في العالم أن تنشر مبادئها وقيمها، وتفرضها على الكيانات الضعيفة. ومن أجل ذلك تأتي ضرورة ضبط المفاهيم، واستعمال المصطلح المناسب لكل مفهوم، وإعطائه الدلالة المناسبة؛ ذلك أن الفوضى في استعمال المفاهيم يرافقها عبث وخلط وتضليل، بصورة مقصودة أحياناً. ولعلّ مفهوم "القيم العالمية universal values" أن يكون أحد المفاهيم التي يرغب كثير من الأنظمة والتوجهات الإيديولوجية في أن تنسبها لنفسها، مع أن هذا الادعاء يتصف بالزيف في كثير من الأحيان. ولذلك فإنّ معظم الأنظمة والمؤسسات تدّعي أن القيم التي تؤمن بها هي قيم راقية، تستحق الدفاع عنها أمام الضغوط التي يمارسها الآخرون الذين يبشّرون بما يعدونه قيماً عالمية.

ولا شك في أن القيم تميّز النوع الإنساني من غيره من المخلوقات، وتحقق متطلبات الاجتماع الإنساني والعيش المشترك، فليس ثَمَّة تجمع دون نظام ومعايير وقيم يرتضيها المجموع، ومع ذلك فالقيم تتسق مع الفطرة البشرية، وهي مكوَّن من مكوناتها، فهي ليست سلطة غريبة، ولا أمراً طارئاً فرضته تجارب البشر وحاجاتهم، كما أنّ القيم ترتبط بالكرامة الإنسانية، فحياة الإنسان وحريته هي قيمة عظيمة الشأن، وحفظها من المقاصد العليا.

والقيم معايير للحكم على الأعمال، والخُلُق صفةٌ نفسية تلازم الإنسان وتتحكم في أعماله، والسلوك هو المظهر العملي للخلُق، يدلُّ عليه. وتأخذ القيم والأخلاق موقعها عندما يتجاوز استحسانُها الفردَ، أو القليل من الأفراد، وتتجاوز الحالات المؤقتة والمحدودة، لتكون صفة عامة لدى المجتمع الكبير أو لدى النوع الإنساني. فهل

هذا يعني القول بأن القيم في جوهرها هي أمور عامة، عالمية، مشتركة بين الناس، تتصف بالثبات والاستقرار؛ ومن ثم فهي قيم مطلقة؟! أم أنَّ من القيم ما هو عام ومطلق، ومنها ما هو خاص ونسبي؟ إن الدارسات الفلسفية لم تحسم الأمر، وإنما توزعت على المقولتين، واستندت في ذلك إلى محاكمات عقلية ومنطقية للقول بالقيم المطلقة، وإلى ملاحظات للوقائع التاريخية للقول بالقيم النسبية.

وحين نقول بوجود قيم إنسانية مشتركة، فإننا نشير إلى أنَّ للقيم قوتَها الذاتية، المستندة إلى الفطرة البشرية، وإلى منطق العقل، وإلى منطق اللغة. فالمرجعية الدينية الإسلامية ترجِّح أنَّ الإنسان مخلوقٌ خيِّرٌ بالفطرة، ولكنَّ لديه الاستعداد لاختيار نَجْد الخَيْر أو نَجْد الشرِّ، وَفْقَ تفاعله -سلباً وإيجاباً- مع عوامل البيئة التي يكون فيها، وأنماط التنشئة والتربية التي يتلقاها. وفطرة الخير في الإنسان تجعلُه يحكم أنَّ العدلَ فضيلةٌ، يُحِبُّ أنْ يتحلَّى بها، وأنَّ الظلم رذيلة، لا يحبُّ أنْ تُلصَق به؛ فالحياء في الإنسان قيمة أصيلة بعيدة الغور في تاريخ الإنسان، منذ تكشفت الخصائص البشرية الخاصة بحياته على الأرض، بعد الأكلِ من الشجرة، حين أدرك آدم وحواء قيمة الحياء، وظهر لديهما خُلُقُ السَّتر، ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ.﴾ (طه:١٢١)

والأسرة مثال آخر على فطرية القيم؛ إذ تتكون الأسرة الصغيرة (النووية) من رَجُلٍ، وامرأة، وأبناء وبنات، ويضاف إليهم في الأسرة الكبيرة (الممتدة) جَدَّان وجدَّتان، وأعمام وعمّات، وأخوال وخالات...، فالرجل والمرأة لا وجود لهما خارج الأسرة، ولا تكتمل قيمة أحدهما دون الآخر، ودون الأسرة، فكل مفاهيم الأسرة: الأمومة، والأبوة، والبنوة، والعمومة، والخؤولة... كلها قيم في منظومة الوجود البشري. وقد كانت الأسرة دائماً وحدة البناء في جميع المجتمعات البشرية، منذ القدم. ومنذ أخذت المجتمعات الغربية تعلي من قيمة الفرد على حساب قيمة الأسرة، بدأت هذه المجتمعات تتفكك وأصابها من الانحلال الأخلاقي، وانتشار القيم الشاذة، ما أوصلها إلى ما يسميه (فوكوياما) بـ"الانفراط العظيم Great Disruption". ويفسر (فوكوياما) وصول المجتمعات الغربية إلى هذه الحالة "بالتغيرات الثقافية والقيمية المتمثلة في النزعة الفردية التي أثَّرت في علاقات الجنسين، وسبّبت التفكك الأسري، فحبوب منع الحمل والإجهاض الآمن سمحا بممارسة الجنس دون خوف من النتائج؛ مما جعل

الرجال يتحررون من القيم التي كانت تفرضُ عليهم مسؤولية العناية بالنساء عند حصول الحمل."[١]

والقيم والأخلاق توجد في الإنسان بالفطرة، لكنها تحتاج إلى الكشف عنها، وإيلائها الرعاية؛ من أجل تنميتها، فهي كالنبات، ينبت حسب فطرة الله في الخلق، لكن النبات النافع قد تظهر إلى جواره نباتات ضارَّة، تنافسه على ما في الأرض من رطوبة وغذاء، فتقضي عليه، والمزارع الحكيم يزيلُ النباتات الضارة، ويوفِّرُ السقايةَ المناسبة؛ حتى يستوي النبات على سوقه، وينضج ثمره.

هيَ الأخْلاقُ تَنْبُت كالنَّبات إذا سُقِيَت بِمَاء المَكرُمات

ومنطق العقل يؤكد البعد الإنساني المشترك في القيم، فالإنسان العاقل لا يقبل أن يوصف بالظلم أو الخيانة أو الكذب، حتى لو كان أكثر الناس ظلماً أو خيانة أو كذباً! فهذه الصفات هي رذائل مستقبحة، لا تستسيغُها فطرة بشرية أو عقل سليم. والإنسان العاقل يُحِبُّ أن يتَّصف بالعدل والأمانة والصدق؛ لأنَّها فضائلُ في حدِّ ذاتها، وهي عناوين لقيم نبيلة يحتاج إليها الناس ويمجِّدونها.

ومنطق اللغة يؤكد البعد الإنساني كذلك؛ فألفاظ الظلم والخيانة والكذب في كل لغات العالم تثير في النفس النفور والاشمئزاز، وألفاظ العدل والوفاء والصدق في كل لغات العالم تثير في النفس الراحة والسكينة.

وهكذا، فإن منطق العقل ومنطق اللغة، فضلاً عن البعد النفسي الفطري في وصف القيم، يجعل القيم في جوهرها خصائص إنسانية عالمية، تتصف بالشيوع والثبات عند الناس، مهما اختلفت أعراقهم وأديانهم ولغاتهم.

ثانياً: صراع القيم أم صراع المصالح؟!

أفرزت أفكار "الحداثة والتنوير" في الغرب الأوروبي والأمريكي فكرة حرية الاختيار، ما يفرض التغير والاختلاف، وينفي الثوابت والمطلقات، في مجالات السلوك الفردي والاجتماعي، ومن ثمَّ جاء مبدأ "نسبية القيم" باختلاف الزمان، كما فرضت

[1] Fukuyama, Francis. *The Great Disruption: Human Nature and the Reconstitution of Social Order*, New York: Free Press, 1999, pp. 101-111.

فكرة "التطور" تغيراً في القيم، فلا تعود القيم القديمة صالحة، ويلزم إحلال قيم جديدة محلها. وقد أدّت فكرة نسبية القيم إلى اختلاف اختيارات الناس تبعاً للمكان والواقع الاجتماعي، فرؤية الناس في مجتمع له تاريخه وتقاليده وعاداته ترجح لديه قيماً لا تترجح لدى مجتمع آخر. كما أدّت نسبية القيم إلى اختلاف اختيارات الفرد وتفضيلاته القيمية، فهو –مثلاً– أوْلَى بجسده مما يفرضه عليه المجتمع من حوله، وهو أقدر على اختيار أنماط السلوك التي يراها مناسبة له دون التقيد بأيِّ معايير اجتماعية. وقد جاءت أفكار ما بعد الحداثة فجعلت من "نسبية القيم" "قيمة مطلقة"!

وحتى لو جرى الاتفاق على قيمة معينة، فإن ذلك لا يعني بالضرورة اتفاق الخصوم وتآلفهم وإيقاف الاختلاف والصراع فيما بينهم؛ إذ إنَّ عمق الخصومة سينقل الاختلاف حول الطريقة التي تطبق فيها القيمة المتفق عليها، فقد يتفق أكثر الناس على أنَّ الحرية قيمة عالمية، لكنهم قد يختلفون على من يستحق الحرية؛ وحرية التديُّن قيمةٌ عالمية مشتركة، لكن الناس قد يختلفون في حرية التعبير عن الالتزام الديني، أو قيمة الأشكال التي يظهر فيها هذا الالتزام، من نحو ما يسمونه "الرموز الدينية." والسبب في ذلك أن "قيمة" القيم التي يتبناها أي مجتمع، ترتبط في كثير من الأحيان، بقوة المجتمع العلمية والاقتصادية والعسكرية والسياسية، أو قوة الفئة المتحكمة في المجتمع، فيصبح التنافس في الدفاع عن القيم، أو ممارسة الضغط من أجل نشرها، تعبيراً عن مصالح المجتمعات أو الفئات المتنافسة فيه، أكثر منه تعبيراً عن المضمون الأخلاقيِّ الثاوي في تلك القيم.

فالصراع على القيم في حقيقته صراع على المصالح، والمتفوِّق في هذا الصراع هو الذي يرى قِيَمَه أكثر تفوقاً من قيم المهزوم والضعيف والفقير! ألا نرى أن قيم حقوق الإنسان والديمقراطية هي قيم جيدة ما دامت تأتي بالأوضاع والظروف التي تحقق مصالح بعض الفئات أو القوى المهيمنة؟! فحقوق الإنسان في التدين لا تشمل حقَّ الفتاة المسلمة في غطاء الرأس في المدارس والجامعات الفرنسية والتركية، ولا حقَّ المحاكمة العادلة للسجناء في "أبو غريب" و"غوانتانامو"، ولا حقَّ الحصول على أسباب الحياة في غَزَّة. والممارسة الديمقراطية قيمةٌ كبرى في الثقافة الغربية عموماً، لكنها ليست القيمة المرغوب فيها عندما تفرز الديمقراطية غير المرغوب فيهم من قوى المعارضة، أو الممانعة، أو المقاومة للهيمنة الغربية. أليس ادعاء هذه القيم هو محض نفاق؟!

وربما لا يختلف الناس على المعنى النظري المباشر لدلالات "القيم العالمية"، وانتساب هذه القيم إلى دائرة حضارية معينة، أو اشتراك كثير من الدوائر الحضارية في الاعتداد بها، لكن طريقة فهم هذه "القيم العالمية"، وطريقة إعمال هذه القيم في التطبيق العملي تتفاوت من مجتمع إلى آخر. فعقوبة الإعدام في أوروبا تتناقض مع قيمة الإنسان وكرامته، والأمريكيون يرونها عقوبة مشروعة، والعطلة الإلزامية للأسواق التجارية يوم الأحد في معظم المجتمعات الأوروبية قيمة دينية واجتماعية، تعبر عن قداسة هذا اليوم، بينما لا يرى الأمريكيون الأمر كذلك. وحين قدّم الرئيس الفرنسي ساركوزي في شهر ديسمبر ٢٠٠٨م اقتراحاً إلى الجمعية الوطنية الفرنسية، بالسماح للأسواق بالعمل يوم الأحد، ضجَّت الفعاليات الشعبية والرسمية تحذر من زحف "القيم الأمريكية"، ومزاحمتها للثقافة الفرنسية والقيم التقليدية الفرنسية.

ثالثاً: تنافس على القيم العالمية وحرص على القيم الخاصة.

تشكَّلت قيم الحداثة الغربية في دائرة حضارية واحدة، تغذت من مزيج من: التراث اليوناني، والديانة المسيحية، والتقدم العلمي، والحرية الفردية، والتنوير العقلاني، والتطور الطبيعي والاجتماعي، إلخ. وأصبحت هذه القيم تشكِّل هُويةَ الغرب وروحَ الحضارة الغربية. وقد تحركت الدول الغربية في حملاتها الاستعمارية حاملة معها هذه القيم "المتفوقة" و"الحضارية" و"الحداثية" و"التقدمية"، التي تعطيها حق "الاحتلال" و"الانتداب" و"الحماية" لشعوب العالم الأخرى، و"الوصاية" عليها، وهي تزعم أنها تريد أن "تخلّص" هذه الشعوب من قيمها التي صبغتها بالتخلف والرجعية والجهل.

وإلى عهد قريب كان دعاة الفكر الغربي في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، ومعهم المتأثرون بهم في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، يدّعون تفوّق "القيم الغربية"، وضرورة أن تتبنَّى الشعوب غير الغربية هذه القيم بوصفها أصبحت قيماً عالمية، والإقلاع عن قيمها الخاصة، حتى إن الحديث عن الخصوصيات القيمية للشعوب الأخرى، والتشكيك في عالمية القيم الغربية وتفوقها، كان يكفي لتفسير تخلُّف هذه الشعوب. لكنَّ الوضع في العقدين الأخيرين أصبح مختلفاً، فقد توسعت دائرة الاختلاف حول هُويَّة "القيم الغربية" إلى حدٍّ بات واضحاً. وأصبح الحديث عن خصوصيات الشعوب الغربية، وهُويَّاتِها القيمية حديثاً مألوفاً.

وإذا كان الغرب يمثل في المصطلح جهة جغرافية، تقابل الشرق، فإن للشرق "قيماً شرقية" تقابل القيم الغربية، أو تتكامل معها. وخاصة أن الشرق كان مهد الأديان

المعروفة في الماضي والحاضر، وكانت الأديان على الدوام مصدراً رئيساً للقيم الإنسانية النبيلة بفئاتها ومجالاتها المختلفة. وقد كان الشرق، بما يحمله من إرث حضاري وديني، مصدر إلهام لشخصيات إصلاحية عديدة منذ القرن التاسع عشر، من أمثال: جمال الدين الأفغاني الذي أُطلقت عليه صفات: حكيم الشرق،[٢] ومصلح الشرق،[٣] وموقظ الشرق،[٤] وكانت إحدى الخاطرات التي ضمّها كتاب (خاطرات جمال الدين الأفغاني) بعنوان: المحاورة بين الشرق والغرب.[٥] لكن فكرة القيم الشرقية لا تزال تظهر في مناسبات عديدة، وبخاصة لدى الفلاسفة والمفكرين في شرق آسيا، حين يتحدثون عن ضرورة عدم التضحية بالجوانب الإيجابية من القيم التي حملتها الحضارة الغربية، وعدم التضحية، في الوقت نفسه، بالجوانب الإيجابية من القيم الشرقية، وضرورة هدم الجدار الفاصل بين "القيم الغربية التي تشحذ قيم الليبرالية والنزعة الفردية... والقيم الشرقية (التي) تقترب أكثر من المبادئ الجماعية...؛ إذ إن القيم الغربية تحتوي على صفات معينة خاصة بقيم الشرق، في حين أننا نجد عناصر شرقية –أيضاً– في مكونات قيم الغرب."[٦]

وقد كان للقارة الآسيوية نصيب وافر من المواجهة الحضارية مع الاستعمار الغربي؛ إذ شهدت هذه القارة حضارات عريقة في تاريخها، وكان للمفكرين ودعاة التحرر في كل من الهند والصين واليابان مقولات قوية في مواجهة الثقافة الغربية، وكشف زيف القيم الغربية. ومن هنا جاءت فكرة "القيم الآسيوية Asian Values"، في محاولة للتأكيد على قيم بديلة للقيم الغربية، وسادت فترة ما بين الحربين العالميتين من القرن العشرين مناقشات فكرية وفلسفية حول حول الخصائص الأساسية لمعنى كون الإنسان آسيوياً. واعتمدت هذه المناقشات على نظم القيم في الديانات البوذية والكونفوشية والإسلام. وقد تتبع الباحثان الأُسترالي (جون كاميرون)، والياباني (ماساميشي ياماشيتا) تطور فكرة القيم الآسيوية، وعلاقتها بطبيعة الإنسان وقدراته.[٧]

---

[٢] عكاوي، رحاب. **جمال الدين الأفغاني (حكيم الشرق)**، بيروت: دار الفكر العربي، ١٩٩٣م

[٣] عوض، محمود. **جمال الدين الأفغاني/مصلح الشرق**، القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٨م.

[٤] عمارة، محمد. **جمال الدين الأفغاني: موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام**، القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨م.

[٥] المخزومي، محمد باشا. **خاطرات جمال الدين الأفغاني**، بيروت: دار الحقيقة، ١٩٨٠م. (نشرت الطبعة الاولى عام ١٩٣١م)

[٦] كي، وو تاك. نحو فلسفة علمية، **رسالة اليونسكو**، العدد ٩، ٢٠٠٧م.

[7] Cameron, John and Yamashita, Masamichi. *Asian Values and Human Capabilities*. Norwich, UK: University of East Anglia, 2004.

لكن مفهوم "القيم الآسيوية" قد عاد إلى الظهور مرة أخرى بقوة في تسعينيات القرن العشرين؛ للتأكيد على "الخصوصيات الثقافية" للبلدان الآسيوية، وخاصة في سنغافورة وماليزيا والصين واليابان، لمواجهة التشريعات التي تحاول المنظمات الدولية والدول الغربية فرضها، في مجال حقوق الإنسان على وجه الخصوص، وذلك بحجة أن هذه التشريعات هي قيم عالمية. وقد ساد العقد الأخير من القرن العشرين جدل كبير حول ادعاءات القيم الآسيوية، والادعاءات المضادة، التي زعمت أن رفع شعار القيم الآسيوية والخصوصيات الثقافية هي محاولة لتبرير انتهاكات حقوق الإنسان.[٨] وكان من أقوى الدعاة إلى القيم الآسيوية رئيس وزراء ماليزيا السابق محاظر محمد، الذي لا ينكر أن مفهوم "القيم الآسيوية" مفهوم دفاعي، لكنه دفاع في مواجهة جهود الغرب المتواصلة للتقليل من قيمة الآخرين، والحطِّ من شأنهم، ولذلك فإنه يرى أنه آن الأوان أن يدرك الغرب أن آسيا تستحق الاحترام، وأن على الآسيويين أنفسِهم أن يحترموا بلدانهم وقيمهم ومعتقداتهم وثقافاتهم، حتى يضطر الغرب إلى احترامهم.[٩]

ومع أن القيم الغربية ترسخت في أرجاء القارة الأوروبية والأمريكية، ولا سيَّما بعد الحرب العالمية الثانية، فإننا أخذنا نشهد في العقدين الأخيرين شرخاً ملحوظاً بين الجناح الأوروبي، والجناح الأمريكي من العالم الغربي. لقد تزايد الحديث عن القيم الأوروبية والقيم الأمريكية، والتنظيم المؤسَّسيِّ للمفهومين، وصدرت الكثير من الكتب التي تتحدث عن الروح الامبراطورية الأمريكية وثقافة الممانعة الأوروبية، وربَّما يتحول الشرخ إلى انشقاق مصيري بين الجناح الأوروبي والجناح الأمريكي من العالم الغربي. وقد بات هذا الواقع الجديد يطرح سؤالاً جوهرياً حول ما إذا كان مفهوم الغرب لا يزال يحمل دلالة محددة أو مصداقية ذات قيمة حقيقية!

لقد أصبحت الهوية الأوروبية تتمايز عن الهوية الأمريكية بصورة واضحة، وعندما نُعدِّد مواقف الجهتين فليس من العسير أن نكتشف اختلافاً جوهرياً في مدى الالتزام

---

[8] Li, Xiaorong. *Asian Values and the Universality of Human Rights*, College Park, Md. The Institute for Philosophy and Public Policy. pp.3-5.

[9] Asia Pacific Management Forum, *Mahathir and the Asia Pacific Management Forum on Asian Values and International Respect*, May 21, 1996, WWW.apmforum.com/news/apnm21.htm

بمعايير وضوابط "عالمية" تتعلق بمفاهيم العدالة والمساواة والسلام، ما قد يعكس اختلافاً بين الجهتين في رؤية العالم، أو على الأقل رؤية كل منهما لموقعه في ساحة العالم، ولنصيبه من المصالح في هذه الساحة. فالولايات المتحدة الأمريكية تقف موقف المعارضة لما تريده أوروبا في كثير من المسائل التي تتجاوز التنافس السياسي والمصالح الاقتصادية، مثل موقفها المعارض من الاتفاقية المضادة للصواريخ البالستية، بل إنها في الوقت نفسه تريد بناء درع صاروخي في أوروبا، وترفض اتفاقية حظر الحرب البيولوجية، واتفاقية منع استخدام الألغام الأرضية، وهي تعارض المحكمة الجنائية الدولية، وتشترط استثناء رعاياها العسكريين من أيِّ التزامات قانونية، كما تعارض اتفاقية "كيوتو" حول بيئة الأرض والمناخ العالمي. وكأنّ الولايات المتحدة الأمريكية ترى أنّ أيّة اتفاقيات "دوليّة" هي قيود تعيق الهيمنة الأمريكية، وتَحُدُّ من سيادتها المتفردة في ساحة العالم، بينما يرفض الأوروبيون هيمنة القطب الأمريكي الواحد، ويريدون أن يكون "الاتحاد الأوروبي" قطباً آخر موازياً ومنافساً. ولذلك لا بد أن يكون لشعوب الاتحاد الأوروبي مجتمعة قيمٌ خاصة بها، ولتكن "القيم الأوروبية."

ولذلك نجد أن المركز الألماني للإعلام التابع لوزارة الخارجية الألمانية ينشر في ١٥نيسان ٢٠٠٨م، تصريحاً للمستشارة الألمانية (أنجيلا ميركل) في (ستراسبورج)، وصفت فيه مجلس الاتحاد الأوروبي بأنه حارس "القيم الأوروبية"، تقديراً لدوره، ومن بين هذه القيم: الديمقراطية، ودولة القانون، والحرية، والتنوع، والتسامح، والعدل، والحفاظ على كرامة الإنسان، بوصف تلك القيم كانت الأساس الذي قامت عليه أوروبا.[١٠]

ونجد أن رئاسة الاتحاد الأوروبي تصدر كتاباً بعنوان: أوروبة في اثني عشر درساً، وكان الدرس الأول بعنوان: لماذا الاتحاد الأوروبي؟ جاء فيه حديث عن رسالة أوروبا في القرن الحادي والعشرين، وتضمنت الرسالة ستة عناصر. أحدها بعنوان: القيم، وفيه: إن الأوروبيين يفتخرون بإرثهم الغَنِيِّ من القيم التي تشمل الإيمان بحقوق الإنسان، والتكافل الاجتماعي، والشراكة الحرة، والتوزيع العادل لثمار النمو الاقتصادي، والحق ببيئة محمية، واحترام التنوع الثقافي واللغوي والديني، والمزج المتناغم بين التقاليد والتقدم.[١١]

[10] http://www.almania-info.diplo.de/Vertretung/gaic/ar/03/Deutschland__in__der__EU/BK__Europarat__April-08__Seite.html.

[11] http://www.delsyr.ec.europa.eu/ab/europe_in_12lessons/1.html

وقد تأجلت القمة السنوية للصين والاتحاد الأوروبي بسبب استقبال الرئيس الفرنسي لـ (لدالاي لاما) في مطلع ديسمبر ٢٠٠٨م، وقال الرئيس الفرنسي بهذا الخصوص: "إن الجانب الفرنسي يرغب في استئناف الحوار مع الصين، ولكن ليس على حساب التنازل عن قيمنا الأوروبية." وأذاعت وكالة الأنباء الصينية (شينخوا يوم ١٦ديسمبر ٢٠٠٩م) تصريحاً لـ"يو جيان تشاو المتحدث باسم وزارة الخارجية الصينية الذي جاء فيه: "إننا لا نتدخل في القيم التي تتبعها الدول الأخرى، ولكن في الوقت نفسه لا يمكننا أن نقبل استخدام تلك القيم حجة للإضرار بالمصالح الجوهرية للدول والشعوب الأخرى."[١٢]

ومع ذلك فإن الدول الأوروبية التي انضوت ضمن الاتحاد الأوروبي، وأصبحت لها قيمها الأوروبية لم تتخلَّ عن قيمها الخاصة بها. فقد أنشأت فرنسا مؤخراً قناة تلفزيونية تحاول أن تنافس قنوات مثل (بي.بي.سي)، و(سي.إن.إن)، و(الجزيرة)، باسم France24، أي: فرنسا أربع وعشرون. والتعبير البارز في رسالة القناة المكتوبة والمعلنة هو التحيز الصريح في "إعطاء الأولوية للقيم الفرنسية والرؤية الفرنسية على نشر الأخبار." وقد وقَّع الصحافيون العاملون في القناة على ميثاق يتضمن: "مهمتنا هي تغطية الأحداث الدولية برؤية فرنسية... وكذلك بث القيم الفرنسية في العالم،"[١٣] أو كما ذكر مدير القناة (جيرار سان بول): "سيكون لدينا اهتمامات أخرى: فن الحياة على الطريقة الفرنسية، فلا ننسى أن من بين مهامنا نشر قيم الثقافة الفرنسية."[١٤]

وأصدر المركز الدولي لدراسات أمريكا والغرب كتاباً ألفه (نيكولاس هيدرسون)، كيف ينبغي التعريف بالقيم البريطانية. وسنجد أمثلة عديدة من الحديث عن القيم الألمانية، والقيم الإيطالية، والقيم الإسبانية، وهكذا. ولماذا إذن لا يكون لكل شعب قيمه ولكل دولة قيمها؟!

وعلى سبيل المثال فإنَّ للصين قيمها؛ إذ نظَّمت وزارة الثقافة الصينية معرضاً للصور لإحياء الذكرى السادسة والخمسين لتأسيس جمهورية الصين الشعبية ٢٠٠٥م، وتضمن الكتاب التذكاري لهذا المعرض حديثاً عن الفعاليات الثقافية، وخصائص المدن

---

[12] www.xinhuanet.com 2008-12-17 08:27:47

[13] www.islammemo.cc/tkarer/takrer-motargam/2007/02/01/31215.html

[١٤] جريدة الشرق الأوسط العدد ١٠١٩٧ تاريخ ٢٨ اكتوبر ٢٠٠٦م.

الصينية، بما في ذلك (بكين) العاصمة، وجاء فيه: "تقوم ثقافة (بكين) النابضة بالحياة على "القيم الصينية" التقليدية."[١٥]

ولإسرائيل قيمها؛ فالرسام الإسرائيلي الذي حصل على جائزة إسرائيل، ورفض حضور حفل توزيع الجوائز؛ حتى لا يضطر إلى مصافحة أحد من وزراء الحكومة الإسرائيلية، فخور بأن يجد من يعترف له بإسهامة في الفكر الإسرائيلي، وتوضيح "القيم الإسرائيلية." رغم أنه يميز بوضوح بين الدولة والمجتمع الإسرائيلي من جهة، والحكم المؤقت للدولة في لحظة معينة من جهة أخرى.[١٦] وكتب (نداف إيال) في جريدة (معاريف) الإسرائيلية: "إن آخر رئيس حكومة سيطر على "دولة اسرائيل" و لم يتم التحقيق معه في الشرطة طول ولايته كلها هو إسحق رابين. بعده جاء عهد القياصرة الأربعة: بنيامين نتنياهو، وإيهود براك، وإيرائيل شارون، وإيهود أولمرت. لن يتذكر التاريخ واحداً منهم تذكراً حسناً، عندما سيستعرض تراجع **القيم الإسرائيلية**."[١٧]

رابعاً: القيم الدينية

وإذا كانت الشعوب والدول تتميَّز بقيمها، فلماذا لا يتميّز كل دين عن غيره بقيمه الخاصة به؟! فثمّة "قيم يهودية" مثلاً، فهذا "يديديا شتيرن" أستاذ القانون في جامعة (بار آيلان)، يكتب في جريدة (يديعوت أحرونوت) صبيحة الخامس من حزيران عام ٢٠٠٨م: "فقط في الدولة اليهودية تقوم سلطة الأغلبية اليهودية، التي يمكن البحث فيها -في لغة "القيم اليهودية"- في وثيقة حقوق الإنسان وواجباته، ... فقط في دولة يهودية يمكن أن يجري حوار، ذو طابع عام، بين القيم الديمقراطية ــ الليبرالية وبين القيم اليهودية ــ التقليدية. دولة يهودية هي أداة لازمة لغرض إصلاح شعب، تجاه الداخل، وإصلاح العالم، تجاه الخارج... ."[١٨]

[15] www.chinaculture.org/cnstatic/doc/exhibition/wdbjwa.doc

[١٦] اوري سلعي، يديعوت احرونوت، الملحق الاسبوعي، الجمعة ٢٠٠٣/٤/٢٥م نقلاً عن المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية.-http://www.madarcenter.org/almash-had/viewarticle.asp?articalid=914

[١٧] نداف إيال في جريدة معاريف بتاريخ ٢٠٠٧/١/١١م بعنوان: "نحتاج إلى زعيم" http://www.wa3ad.org/index.php?show=news&action=download&id=4665

[١٨] يديعوت أحرونوت ــ مقال افتتاحي ــ6/5/2008

وللمسيحية قيمها، فالبابا (بنديكيت السادس عشر) يستغل زيارته في نوفمبر ٢٠٠٦م إلى تركيا التي تريد أن تدخل الاتحاد الأوروبي؛ للتشديد على "القيم المسيحية" لأوروبا: "ويؤكد البابا باستمرار منذ وصوله إلى السدة البابوية في إبريل ٢٠٠٥م على هوية أوروبا المسيحية... وكان البابا دعا ... جميع المسيحيين ... إلى "تجديد وعي أوروبا لجذورها وتقاليدها وقيمها المسيحية، وإلى تجديد حيويتها."[١٩]

ويؤمن المسلمون أن الإيمان الديني فطرة بشرية، وأن موكب الأنبياء والرسل على مدار التاريخ موكب واحد. فالله –سبحانه– لم يترك البشر على هذه الأرض دون هدى، فما ترك الله –سبحانه– أمَّة من الأمم إلا وبعث فيها رسولاً منها، يقدم لها الهدى الرباني. وكل الرسالات السماوية تدور حول القيم نفسها، وإن اختلفت الشرائع. لكن المسلمين يؤمنون –كذلك– أن الأديان الموجودة الآن قد أصابها التحريف، وتعاليمها الحالية ليست جميعها هي التعاليم الأصلية التي جاء بها الأنبياء والرسل. وأن رسالة الإسلام هي تصحيح وإجمال وختام للوحي الإلهي إلى الناس في الأرض، وأن هذه الرسالة –بحكم كونها الرسالة الخاتمة، وأنَّ الله تكفل بحفظها دون تحريف، وأنَّ العهد بها قريب، وأنَّ البشرية وصلت حداً من الرشد– تمتلك من القيم ما لا يلزم غيرها لسعادة الإنسان في هذه الحياة، وفي ما تبقى من عمر البشرية على الأرض. فقيم الإسلام هي المقياس الذي تقاس به أيَّ ادعاءات بقيم أخرى. ومع ذلك فإن الإسلام يحترم الرُّشد الإنساني، وتراكم الخبرة الإنسانية، وقدرتها على كسب الكثير من العلم والحكمة؛ لذلك فإنَّ المسلمين منفتحون على ذلك، يتعلمون من مصادر الكون المادي والاجتماعي والنفسي، ويوظِّفون أدوات العقل والحس والتجربة في تنظيم شؤون الناس، وإدارة الحياة، وترقية أسبابها.

ومن الصعب أن تجد مسلماً يتردد في الإعلان –بثقة كاملة– أن الإسلام هو مجموعة متكاملة من القيم، وأنّ "القيم الإسلامية" هي ما اختارها الله سبحانه للبشرية في الرسالة السماوية الخاتَمة. وإذا كان كلُّ رسول من الرسل السابقين يأتي إلى قومه خاصَّة، فإن خاتَم الرسل محمداً صلّى الله عليه وسلّم، جاء للنَّاس كافَّة، فرسالتُه رسالة عالمية، والقيم الإسلامية هي قيم عالمية، ولو فهم الناس دلالة مقاصد الشريعة الإسلامية، لوجدوا أنَّ هذه المقاصد هي تعبير متكامل عن قيم إنسانية مشتركة، لا

---

http://www.group194.net/?page=ShowDetails&Id=1840&table=hebrew_np

[١٩] http://www.alarabiya.net/articles/2006/11/30/29515.html

يجادل أحد في عالميتها، وأنَّ البحث الموثوق عن قيم إنسانية عالمية سوف ينتهي إلى القيم التي جاء بها الإسلام.

تفترض فكرة "العالمية universality" في القيم في الرؤية الإسلامية أن يشترك النَّاس في العالَم في تقديرها واحترامها؛ وليس بالضرورة لأنَّها توحِّد النَّاس، وتزيل الفوارق بينهم، فقد لا يكون من الممكن تحقيق هذا التوحُّد، وقد لا يكون هذا التوحُّد ضرورياً كذلك. وإذا كنَّا نريد من القيم العالمية المشتركة أن تَحُدَّ من حجم الاختلافات وعمقها بين الأمم، فإننا نحتاج إلى إعطاء الأولوية لبعض القيم وإيلائها العناية اللازمة، وربما تقف في رأس قائمة أولويات القيم المشتركة، "قيمة الاعتراف بحق الاختلاف" واحترام الاختلاف وتقديره؛ الاختلاف ليس بين مكونات الذات الدينية أو القومية أو اللغوية الواحدة فحسب، بل بين الذات في مجموعها والآخر، مهما كانت خصائص الآخر وجوانب الاختلاف معه.

فالمسلمون يؤمنون أنَّ الاختلاف سنَّةٌ من سنن الله في الكون والنَّاس، وآية من آياته الدالَّة على عظَمَته وقدرته، ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ (الروم: ٢٢) فالاختلاف والتنوّع والتمايز آيات لمن يريد أن يتَّصف بالعِلْم، وبتمايز الناس شعوباً وقبائل يتحقق التعارف والتآلف والتعاون بين المختلفين، يتمايزون في اللون والعرق واللغة والدين، ويصل التمايز والاختلاف إلى بلد المولد، ومكان الإقامة، والمهنة، والمذهب، والحزب، وكلها اختلافات تنوُّع لا اختلافات تضاد.

وقد تكون هذه الاختلافات تعبيراً عن هُويَّات متمايزة، لكنها موجودة معاً في المجموعة الواحدة، أو الشخص الواحد، في تناغم وانسجام، وقد تكون هذه الخصائص دوائر انتساب وانتماء متداخلة؛ فالفرد الواحد قد يكون إفريقي الأصل، أمريكي المولد، مسلماً بالدين، طبيباً بالمهنة. وكثير من الأعلام يُعَرَّف بهم بمجموعة من الأسماء التي تنسب الشخص إلى عدد من الدوائر؛ فابن خلدون –مثلاً– حضرميٌّ أصلاً، تونسيٌّ مولداً، مصري وفاة، عربيٌّ لساناً، مسلم ديناً، مالكيٌّ مذهباً، مؤرخ شهرةً، إلخ. فهي إذن دوائر انتساب متعددة لا تناقض فيها ولا تضاد.

وتشريعات الإسلام، التي تستهدف حماية "القيم الإسلامية" العالمية في المجتمع الإسلامي، حفظت للناس أن يعيشوا في هذا المجتمع دون تمييز بينهم على أساس اللون أو العرق أو اللغة أو الدين، ما داموا يشتركون في ضمان أمن المجتمع واستقراره، وحماية "القيم الإسلامية" فيه؛ لأنَّ هذه القيم هي التي تضمن احترام حق الأفراد في الاختلاف، أما حُسْنُ اختيارهم للدين وصدق إيمانهم به، فإن حسابهم في ذلك على الله، وليس من شأن أحد من البشر.